الفصل السادس عشر

فصل فيما يفهم من سبب نزول

الآية ٣٣ من سورة الأحزاب

لخصت في بداية الفصل السابق المعاني الواضحة للآية ٣٣ من سورة الأحزاب، وللآيات القليلة المرتبطة بها في السورة. ومن بقي عنده بعد ذلك شك في أنها تخاطب نساء النبي ﷺ وتكفل لهن المقام الرفيع المقدم بين النساء إن التزمن بشرط التقوى، فليس عليه إلا أن يراجع أسباب نزول هذه الآيات.

أُذَكِّر بالآيات أولا. قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ

وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

وبعد عرض الآيات الكريمة ألفت عناية القارئ الكريم إلى ما سبق أن بينته في رسالة نشرتها بعنوان "أهل البيت في القرآن الكريم والسنة النبوية": كانت حياة النبي ﷺ في بيته حياة الفقراء. لم يجعل من فضل النبوة عليه ومقام الزعامة الذي تولاه في مدينته المنورة سببا للتكبر على الناس والإنفاق على نفسه وأهله ببذخ. كان خياره أن يعيش حياة الفقراء والمساكين، وألا يغتر أبدا بمغريات السلطة والجاه، فقدم بذلك القدوة الأحسن والأفضل للناس كافة إلى يوم القيامة.

نساء النبي ﷺ كنّ في مقام رفيع بين نساء العرب، شرفا وأخلاقا كريمة، لكنهن كنّ بشرا من البشر، وقد رأين كيف تحسنت الأوضاع الاقتصادية في دولة المدينة المنورة، فطلبن من رسول الله ﷺ مراجعة سياسته في النفقة داخل بيت النبوة، وزيادة الإنفاق عليهن، بإلحاح لم يرض النبي ﷺ، فغضب منهن، وأسف لمواقفهن حتى إنه احتجب عن أصحابه أياما. ثم نزل الوحي على النبي ﷺ بتلك الآيات البينات

الواضحة، يخير نساءه بين الحياة الدنيا وزينتها من جهة، وبين الله ورسوله والدار الآخرة من جهة أخرى.

وقد روى البخاري في صحيحه أن عائشة - رضي الله عنها - زوجة النبي ﷺ أخبرت أبا سلمة بن عبد الرحمن أن رسول الله ﷺ "جاءها حين أمر الله أن يخير أزواجه. فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري أبويك، وقد علم أن أبويّ لم يكونا ليأمراني بفراقه. ثم قال إن الله قد قال يا أيها النبي قل لأزواجك إلى تمام الآيتين. فقلت ففي أيّ هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، "وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما". وقال قتادة: "واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة": القرآن والسنة". وأضافت السيدة عائشة - رضي الله عنها-: ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت".

وهكذا جاء الجواب كريماً جميلاً من نفوس كريمة جميلة. قالت السيدة عائشة - رضي الله عنها - لزوجها الكريم ﷺ: في أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. وقالت الزوجات الأخريات مثلما قالت السيدة عائشة رضي الله عنهن جميعا، وانتصرت فيهن جميعا النزعة التي خلقها الله في الإنسان، نزعة السمو والقابلية للترفع عن صغائر الأمور من أجل نيل المعالي، نزعة صورها أبو الطيب المتنبي في بيت من الشعر:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

هذا كله يدل على عبارة "أهل البيت" الواردة في الآيات الكريمة تعني وتشمل زوجات النبي ﷺ. بل الواضح أن الآيات إنما نزلت فيهم، رضي الله عنهم جميعا.

ثم جاء في الحديث النبوي الشريف الصحيح ما يدخل السيدة فاطمة، وزوجها عليا، وابنيهما الحسن والحسين رضي الله عنهم في أهل البيت.

ولا تناقض في الأمر هنا، كما فهمه وقال به أشهر المفسرين والعلماء المسلمين.

الطبري: نساء النبي عليه الصلاة والسلام من أهل بيته

قال الطبري في تفسيره: "قَوْله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يَقُول: وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ، وَآتِينَ الزَّكَاةَ الْوَاجِبَةَ عَلَيْكُنَّ فِي أَمْوَالكُنَّ) وَأَطِعْنَ اللَّه وَرَسُولَهُ (فِيمَا أَمَرَكُنَّ وَنَهَاكُنَّ)إِنَّمَا يُرِيد اللَّه لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْت (يَقُول : إِنَّمَا يُرِيد اللَّه لِيُذْهِب عَنْكُمْ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ يَا أَهْلَ بَيْت مُحَمَّد، وَيُطَهِّرَكُمْ مِنْ الدَّنَس الَّذِي يَكُون فِي أَهْل مَعَاصِي اللَّه تَطْهِيرًا، وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْل التَّأْوِيل.

ذِكْر مَنْ قَالَ ذَلِكَ : - بِشْر ، قَالَ : ثنا يَزِيد ، قَالَ : ثنا سَعِيد ، عَنْ قَتَادَة ، قَوْله : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فَهُمْ أَهْل بَيْت طَهَّرَهُمْ اللَّه مِنْ السُّوء ، وَخَصَّهُمْ

بِرَحْمَةٍ مِنْهُ . . حَدَّثَنِي يُونُس ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب ، قَالَ: قَالَ ابْن زَيْد، فِي قَوْله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قَالَ: الرِّجْس هَا هُنَا: الشَّيْطَان ، وَسِوَى ذَلِكَ مِنْ الرِّجْس: الشِّرْك".

بعد ذلك أورد الطبري حديث الكساء، الذي يبين فيه رسول الله ﷺ أن فاطمة وعليا والحسن والحسين هم أهل بيته، أورده بروايات مختلفة، ومع ذلك قال ما قاله في مطلع تفسيره للآية وقدمه.

ابن كثير: أزواج النبي عليه الصلاة والسلام هن سبب نزول الآية

أورد ابن كثير أيضا حديث الكساء بروايات مختلفة عند تفسيره تفسيره للآية ٣٣ من سورة الأحزاب، ولم يجد تناقضا بينه وبين المعنى اللغوي الواضح للآية، فقال في بداية تفسيره وقبل إيراد حديث الكساء:

"وَقَوْله تَعَالَى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ هَذَا نَصّ فِي دُخُول أَزْوَاج النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ فِي أَهْل الْبَيْت هَهُنَا لِأَنَّهُنَّ سَبَب نُزُول هَذِهِ الْآيَة وَسَبَب النُّزُول دَاخِل فِيهِ قَوْلًا وَاحِدًا إِمَّا وَحْده عَلَى قَوْل أَوْ مَعَ غَيْره عَلَى الصَّحِيح.

وَرَوَى ابْن جَرِير عَنْ عِكْرِمَة أَنَّهُ كَانَ يُنَادِي فِي السُّوق " إِنَّمَا يُرِيد اللَّه لِيُذْهِب عَنْكُمْ الرِّجْس أَهْل الْبَيْت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا " نَزَلَتْ فِي

نِسَاء النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ خَاصَّة. وَهَكَذَا رَوَى ابْن أَبِي حَاتم، قَالَ حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن حَرْب الْمَوْصِلِيّ حَدَّثَنَا زَيْد بْن الْحُبَاب حَدَّثَنَا حُسَيْن بْن وَاقِد عَنْ يَزِيد النَّحْوِيّ عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ قَالَ نَزَلَتْ فِي نِسَاء النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ خَاصَّة وَقَالَ عِكْرِمَة مَنْ شَاءَ بَاهَلْته أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْن نِسَاء النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ.

فَإِنْ كَانَ الْمُرَاد أَنَّهُنَّ كُنَّ سَبَب النُّزُول دُون غَيْرهنَّ فَصَحِيح وَإِنْ أُرِيد أَنَّهُنَّ الْمُرَاد فَقَطْ دُون غَيْرهنَّ فَفِي هَذَا نَظَر فَإِنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيث تَدُلّ عَلَى أَنَّ الْمُرَاد أَعَمّ مِنْ ذَلِكَ".

بعد ذلك أورد ابن كثير حديث الكساء برواياته المختلفة، وحديث زيد بن أرقم عن الوصية بالقرآن الكريم وبأهل بيت رسول الله ﷺ، وختم تفسيره بهذا النص: ثُمَّ الَّذِي لَا يَشُكّ فِيهِ مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآن أَنَّ نِسَاء النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ دَاخِلَات فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. (انتهى النقل)

أقول، أنا محمد الهاشمي: حديث الكساء متصل أيضا بما جاء في الآيات ٥٩-٦١ من سورة آل عمران، ولهذا الموضوع أخصص الفصل الآتي من الكتاب إن شاء الله.